بعد قرن من الزمان:
تعددت الأشكال، والمأرب واحد! (*)

فى مثل هذه الأيام، من قرن وعامين من الزمان.. بدأت منذ مدرس ١٩٠٤، مفاوضات مضنية بين الصديقين اللدودين، أو المتآلفين المتباريين: إنجلترا وفرنسا، فيما انتهى إلى ما عرف "بالاتفاق الودى" الذى أعلن فى ٨ ابريل ١٩٠٤ بين الإنجليز والفرنساوية، ليس فى شأن مصير أى من الدولتين العظميين، وإنما فى شأن "الأبعادية" المصرية و "الأبعادية" المراكشية!.. بمكتب لورد لاندسون وزير الخارجية الإنجليزى، وقّع الوزير وأعلن الاتفاق هو ونظيره وزائره الفرنسى مسيو بول كاميون.. هذا "الاتفاق الودى" بدا وكأنه يطوى صفحة العداوة بين الدولتين ويحل بينهما بالود والتفاهم مرحلة الاقتسام والمباركة المتبادلة.. "شيلنى وأشيلك "!.. تعلمتا منذ آخر محاولات السحق المتبادل من أيام نابليون، أن تتركا التعارك إلى حيث تتسابقان فى نهب خيرات آسيا وأفريقيا، دون أن تنقطع بينهما الملاحاة من وقت لآخر فى تبادل المقالب ثم الترضيات!.. كان نهب" الأبعاديات "فى آسيا وأفريقيا جاريا فى سباق محموم بين الغريمين المتوافقين، لا يفسد على الغانمين غنائمهما إلاّ هذه "الملاحاة" التى تطفح بينهما من وقت لآخر.. فلماذا إذن لا تتركان الملاحاة إلى 'الود" و "التوافق "؟!.. كان من شروط هذا "الاتفاق الودى' أن تبارك فرنسا لانجلترا احتلالها لمصر، وأن تبارك انجلترا لفرنسا احتلالها لمراكش.. فى هذا الاتفاق تعارف أو تواطأ الطرفان على تسوية المسائل فيما بينهما على ما يريدان، وأعلنت فيه إنجلترا بمادته الأولى أنه: 'ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية فى مصر!"، بينما تعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها "بأن لاتعرقل عمل انجلترا فى هذه البلاد، لا

---

* ٢٠٠٦/٤/٦.

بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطانى لمصر، ولا بأى صورة أخرى "!!.. هذا مقابل التزام الحكومة البريطانية بأن لا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش، مع تعهد فرنسا بأن توافق على مشروع الدكريتو الخديوى المرافق للاتفاق والمحتوى على الضمانات التى رؤيت ضرورية لصيانة مصالح حملة أسهم الدين المصرى!..

ومع أن الاتفاق الودى الذى تجلى أثره من بعد فى النبرة المتعجرفة بتقرير اللورد كرومر أبريل ١٩٠٤ كان مسددا من فواتير مصرية مراكشية، لم يدفع فيها المتفقان شيئا، إلا أنه على قدر ندرة الكتب الإنجليزية التى تتحسر على التسليم لفرنسا بالسيطرة على مراكش، كانت كثرة الكتب الفرنسية التى لطمت الخدود وأقامت المناحات على تفريطها فى مصر التى لا تنسى - فيما تراه! - أن محمد على كان رضيعها، وأن مصر الحديثة من غرس يديها، وأنها فى فترة الخديوى إسماعيل كانت ضلعا فى حكم ثنائى، وأنه كان المدبر أن يكون الاحتلال ثنائيا لولا تردد مسيو فريزييه وزير الخارجية الفرنسية آنذاك!

لم يكن قد دان من الرؤية لمصر وشعبها فى ذلك الزمان، ما صار فى قبضتها اليوم..إلاّ أن حادث "فاشودة" بالسودان الذى سبق بسنوات قليلة هذا "الاتفاق الودى" - نبه الحركة الوطنية إلى خطأ الاعتماد على "أجنبى" لإجلاء "أجنبى ".. فى هذه الحادثة "فاشودة" تراجعت فرنسا تراجعاً حاداً محبطاً عمّا كانت قد أزمعته من الوقوف إزاء المطامع البريطانية مما آذن بفتح المسألة المصرية، ومع خيبة الأمل المصرية من هول الصدمة، بدأ يتنامى وعى الالتفات إلى خطأ التدثر بغير أبناء الوطن إزاء غاصبيه والطامعين فيه!.. ثم جاء الاتفاق الودى (١٩٠٤) ليكرس المنعطف الجديد الذى بدأت تتخذه الحركة الوطنية وقوامه أن مصير مصر بأيدى المصريين.. مصر، وكافة شعوب العالم الثالث، لا تعنى بالنسبة لهؤلاء الكبار الذين قامت

واتسعت امبراطورياتهم على دماء الشعوب المغلوبة على أمرها، لا تعنى أكثر من كونها "تكايا" لاستنزاف الدماء وتجميع الخيرات، لزيادة الثروات هناك فيما وراء المتوسط، ولتزداد الأوطان المحتلة تفريطًا فى مقدراتها، وتتراكم على شعوبها تلال البؤس والتعاسة والإحساس بالقهر!

ها نحن بعد مضى نيف ومائة عام، تهاوت فيها إمبراطوريات وقامت أخرى باختلاف فقط فى المسميات، وغربت شموس، وأشرقت أخرى، وتغيرت خرائط كثيرة سياسيا واقتصاديا.. ولكن هل تغير واقع العالم كثيرا، وهل أقلعت الدول الكبرى الجديدة أو القديمة أو الجديدة القديمة - عن النظر إلى باقى دول العالم بمنطق الفرائس والتكايا والأبعاديات.. رأينا الاستعمار الجديد يحل محل الاحتلال أو الاستعمار القديم، ورأينا أبناء الأوطان يُسَخّرون فى ضرب أوطانهم وبنيهم، ورأينا واجهات جديدة وحيلاً مبتكرة للهيمنة على العالم طرأ على الساحة فن صناعة الأزمات، وفن الإمساك بخيوطها وإطالتها مع التحكم فيها لتبقى الهيمنة المخططة حاضرة ومؤثرة على الدوام.. صار تدويل القضايا باباً واسعاً مبتكراً لاقتحام داخليات الأمم والشعوب وسيادات الدول وغلبها وإجبارها على مايريده الكبار.. فى الماضى كان على الساحة قوى كبيرة متعددة ومن ثم تعددت الخيارات، ولكن مع النحر والظروف العالمية والمستجدات تقلصت قوى كبرى فصارت أنصافاً أو أرباعاً، وصارت القوة الكبرى واحدة، ومن ثمّ صار الخيار وحيداً، هو أو فالحائط موجود يضرب رأسه فيه من يشاء!.. لم يستوعب الجدد درس التاريخ الذى ارتبط فيه زوال الإمبراطوريات السابقة بالحروب الخارجية، فإذا بالراعى الجديد - تحت سيطرة المحافظين الجدد - يأخذ القطب الأوحد إلى سلسلة من الحروب الخارجية، لن يكون آخرها أفغانستان والعراق!!

ولكن ماذا عن "الأبعاديات" و "التكايا ".. هل أحسنت التعلم من دروس التاريخ؟! هل أدركت أنها مهما أحسنت النوايا واقتربت، وقدمت السبت والأحد وباقى أيام الأسبوع، ستظل تشعر بأنها من الواقفين على الأعتاب بالباب، فى طلب الرضا السامى والنفحات.. تُعطى الأوطان باليمين ما يؤخذ منها وأكثر ـ بالشمال، وتساوم على سيادتها ومصيرها وإرادتها، فإن تمسكت بحقها أو ببعض حقها، اهتاجت خواطر الكبار، وهددوا بالفوضى البناءة، ضاغطين على الأنظمة لتتراجع ولا بأس من أن تركع!.. مصير العالم يرسم ويتشكل ويتحدد ويفرض هناك، حيث لا مكان للحقوق ولا لأصحاب الحقوق، وإنما للقوة ومنطقها، والقدرة ومعطياتها، والمصالح ولغتها.. أينما نظر الناظر فى الحاضر والماضى، وجد صورا واحدة لا تختلف إلاّ فى الصيغ والمظاهر والأشكال.. تتنادى بأنه لاجدوى إلاّ بأن يجعل إنسان العالم الثالث مصيره بيده، وإرادته بقبضته، وأن تدرك الأنظمة أن الأمل هنا لا هناك، حيث تصنع الأوطان حاضرها وتتجه واعية متفطنة بعزيمتها إلى مستقبلها!